

المختبرات في مصر في العصر الفاطمي

أ. هنان عبد الله مبروس(*)

لم يكن الفتح الفاطمي لمصر فتحاً سياسياً ومذهبياً فحسب، بل كان أيضاً فتحاً حضارياً وفكرياً وتنافسياً على الريادة الأدبية والعلمية؛ لذلك يعد العصر الفاطمي في مصر من أزهى العصور الإسلامية، كما تعتبر فتوحات الدولة الفاطمية في الشرق الإسلامي على وجه العموم، وفي مصر على وجه الخصوص ذات أثر واضح على أحوال البلاد في ذلك الوقت، حيث شهدت مصر نهضة عقلية وفكرية لا تقل ازدهاراً عن النهضة الحضارية التي شهدتها في العصر الطولوني والإخشيدي، وعمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دفع الحركة العلمية، كما اهتموا بالكتب والمكتبات اهتماماً كبيراً باعتبارها أداة فعالة لنشر دعوتهم المذهبية ونفوذهم السياسي في الشرق الإسلامي. وبسبب هذه النهضة الفكرية نشطت الحركة العلمية ونسخ الكتب في مختلف العلوم والآداب، ويرجع ذلك إلى المذهب الإسماعيلي الذي جاء به الفاطميون، وما قام عليه من أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر، فهب العلماء يؤيدون آراء هذا المذهب من جهة، ويجتهدون ويشرحون من جهة أخرى، ويؤلفون الكتب من جهة ثالثة؛ ونتيجة لذلك توافر العلماء والأدباء، وكثرت المؤلفات، وتتنوعت العلوم والمعارف ولم تعد تقتصر على العلوم الدينية فقط.

وقد تجلت هذه النهضة في إنشاء الفاطميين لدور العلم والعبادة والمكتبات، وإقامة مجالس الدعوة المذهبية في القصور والمساجد، وتأليف الكتب كوسيلة لنشر العلم والثقافة بجانب نشر تعاليم المذهب الإسماعيلي، الذي يحتاج إلى المثقفين العارفين بأصوله ومبادئه، والقادرين على الجدل والمناقشة مع علماء المذهب السني، وذلك لأن المذهب الفاطمي يقوم أساساً على العلم والعمل، والجدل والمناقشة.

كل هذه الأمور جعلتهم يقدرون العلم والعلماء ودور الكتب كأداة مهمة وفعالة لبسط نفوذهم الديني والسياسي في مصر وغيرها من البلاد المجاورة، وقد أدرك الخليفة المعز لدين الله ذلك الأمر وعرفه حق المعرفة وهو في بلاد المغرب، وأخذ يشجع العلماء ويحثهم على تحصيل العلم والمعرفة.

(*) ماجستير في الآداب - قسم المكتبات والوثائق وتقنية المعلومات - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

هكذا كان الفاطميون منذ البداية على وعى كبير بدور الكتب والمكتبات فى تثقيف الشعب وتعليمه ونشر دعوتهم المذهبية، ويمكن القول بأن المكتبات الفاطمية أنشئت خصيصاً من أجل الدعوة إلى المذهب الفاطمى؛ لذا ظهرت أنواع كثيرة من المكتبات منها: مكتبات القصور، ومكتبات المساجد، والمكتبات الخاصة التى انتشرت بشكل كبير بين الأفراد والوزراء والأمراء والعلماء، والمكتبات العامة التى أنشأتها الدولة؛ من أجل ذلك جلب المعز لدين الله معه عند قدومه إلى مصر الكتب التى تتناول الدعوة المذهبية من مكتبته الخاصة بالقيروان، فكانت هذه الكتب النواة الأساسية التى قامت عليها أول مكتبة خاصة أنشأها الفاطميون فى مصر، وكانت تقع فى القصر الشرقى الكبير الذى بناه القائد جوهر الصقلبي - بعد نجاحه فى إقامة الدولة الفاطمية - لإقامة مولاه المعز لدين الله عند رحيله من المغرب، وأطلق عليه القصر الشرقى لأنه كان يقع بالقرب من السور الشرقى الكبير. فى هذا القصر كانت أول مكتبة فاطمية فى مصر، فقد قال المقرئى: "كانت بالقصر الكبير عدة خزائن منها خزانة الكتب"^(١)، ويقصد بها مكتبة القصر الخاصة بالخلفاء الفاطميين.

وقد تجلّى الاهتمام بهذه المكتبة فى عهد الخليفة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر، حيث بلغت فى عهده شأنًا عظيمًا أهلها لأن تكون من عجائب الدنيا، ويقال: إنه "لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى بالقاهرة فى القصر"^(٢). وقد بلغت هذه المكتبة من العظمة والجلال أن البابا سلفستر الثانى الذى ارتقى كرسى البابوية فى روما سنة (٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م)، قال عنها متحسراً: "إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد فى رومة له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة. وأنى لنا أن نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا. إن فاقده الشئ لا يعطيه"^(٣).

وبوصف المكتبات مؤسسات ثقافية تعليمية تربية اجتماعية، فإنها لعبت دوراً مهماً فى نشر المعرفة والثقافة بين أفراد الشعب المصرى؛ من أجل هذا حذا الوزراء والأمراء والعلماء حذو خلفائهم فى الاهتمام بالكتب والمكتبات، وحب الكتب وولعهم بها واحترامهم لها، مما دفعهم إلى جمعها والمحافظة عليها والعناية بها، فانتشرت المكتبات فى قصور الخلفاء والوزراء، وبيوت العلماء والأدباء، وكبار رجالات الدولة

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٠٨.

(٢) أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، ج١، ص ٢٠٠.

(٣) زيفريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ص ٣٥٣ - ٣٤٥.

وأعيانها، ولم تخل المساجد من وجود مكتبة تزين أركانها، وظهرت المكتبات العامة وقامت بدور تعليمي وسياسي، وهكذا عرفت مصر في العهد الفاطمي أنواعاً متعددة من المكتبات مما يدل على إدراك الفاطميين لدور المكتبات في ازدهار المجتمع ورقية، ويعد سبباً يسجل لهم في ذلك الوقت.

وقد كانت مباني المكتبات على درجة عالية من العظمة والجلال، والروعة والجمال؛ مما يدل على الاهتمام بها والعمل على تجديدها باستمرار، ولا شك أنها أفادت كثيراً من الإمكانيات المادية والبشرية التي وفرها الخلفاء الفاطميون للعناية بها والإنفاق عليها، حيث يعتبر مبنى المكتبة أول المقومات التي تعتمد عليها المكتبة في أداء وظيفتها، حيث لا يوجد خدمة مكتبية حقيقية بدون مبنى مناسب؛ لذلك لم يدخر الفاطميون جهداً في تأسيس المكتبات وإعدادها الإعداد المناسب للقراءة والاطلاع والبحث.

وقد مرت المكتبات الفاطمية في بداية الأمر بطورين : الأول : هو المكتبات الملحقة بمباني موجودة بالفعل، ومنها : مكتبات المساجد والقصور ومنازل بعض الأفراد كالوزراء والأمراء والعلماء والأطباء، وهذه المكتبات كانت جزءاً من المكان أو البناء الذي وجدت فيه، وخير مثال على ذلك خزانة الكتب الخاصة بالخلفاء الفاطميين الملحقة بالقصر الشرقي الكبير، وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة، وهما بابان من أبواب القصر، وكانت خزانة الكتب تقع فيما بين باب الزهومة والجامع الأزهر، وذلك في الجهة الشرقية من مدينة القاهرة^(١).

أما الطور الثاني : فهو المكتبات الكبرى التي أسستها الدولة وأفردت لها مبنى مستقلاً، أنشئ خصيصاً ليصبح مكتبة عامة، ونقصد بذلك دار العلم أو دار الحكمة الفاطمية التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وكانت هذه الدار تقع بجوار القصر الغربي الصغير بالقاهرة، الذي يقول عنه المقرئزي: "لم يُبن مثله في شرق ولا في غرب"^(٢)، وكان موضع المارستان الكبير المنصوري بجوار حارة برجوان^(٣)، من الجهة البحرية خلف خان مسرور، ويدخل إليها من باب التبانين، وهو باب من أبواب القصر الفاطمي الصغير كان يعرف في زمن المقرئزي (القرن التاسع الهجري/الخامس

(١) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٣٦٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٥٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٦٣، ٤٥٧.

عشر الميلادى) بقبو الخرنشف، وصار فى موضع هذه الدار بيت آل الخضيرى بدرب الخضيرى المقابل لمسجد الأقرم^(١)، وكان ذلك فى خلافة الحاكم بأمر الله.

واستمرت دار العلم فى هذا المكان إلى أن أغلقها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (ت ٥١٥هـ/ ١١٢١م)، وبعد وفاته أعاد فتحها الوزير المأمون أثناء خلافة الأمر بأحكام الله، ولكن فى موضع جديد بجوار القصر الكبير الشرقى من مدينة القاهرة^(٢)؛ حيث حلت محل دار قديمة كانت موجودة خلف خزانة الدرك من باب تربة الزعفران^(٣)، وأصبحت هذه الدار المكان الجديد لدار العلم إلى أن تداعت الدولة الفاطمية وزالت على يد الأيوبيين.

ولم يتوان الفاطميون فى تجميل وتزيين المباني الملحق بها مكتباتهم، لإدخال البهجة والسرور فى نفوس القراء والرواد، فاستخدموا أكثر من وسيلة منها : إحاطة هذه المباني بالبساتين والحدائق والأشجار والإكثار منها، فقد كان يحيط بقصور الخلفاء بساتين ذات شأن عظيم تعرف بالبساتين الجيوشية^(٤)، وذلك للتنزه والترويح عن النفس، كما كان يوجد بدار الوزير الأفضل بستان كبير ومائة وعشرون مجرى للماء الذى يجرى فى البرك والحياض^(٥).

ومن هذه الوسائل أيضاً : تجديد مباني المساجد الملحق بها مكتبات، وإعادة عمارتها، فعلى سبيل المثال تم تجديد مسجد عمرو بن العاص، فبيضت أروقته، وزينت أبوابه الخمسة الشرقية بخمسة ألواح منقوشة ومذهبة، علقت على أبوابه بأمر من الوزير برجوان أثناء خلافة الحاكم بأمر الله^(٦)، كما زيد عدد مجالسه حتى بلغت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى مائة وعشرة مجالس^(٧)، وأدخلت عليه إضافات كثيرة وغريبة منها: "ثريا فضية لها ستة عشر جانباً"^(٨).

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على حرص الفاطميين واهتمامهم بتهيئة الجو

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٢) المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤٥.

(٤) المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٤٨٧.

(٥) المصدر السابق ج ١، ص ٤٣٩، ٤٠٨.

(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٧) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ٢٠٥.

(٨) ناصر خسرو. سفرنامه، ص ٥٩.

المناسب والهادئ للمتريدين على هذه المكتبات، وتوفير وسائل الترفيه والترويح عن النفس لهؤلاء القراء، حتى لا يتسرب إلى نفوسهم الضيق والملل.

وهكذا كان الشكل العام للمباني الفاطمية على درجة عالية من العظمة والفن والجمال كما هو واضح في بناء قصورهم ومساجدهم في مصر بعد فتحهم لها، وإذا كان هذا هو حال المباني كما يصفها المؤرخون، فإن المكتبات الملحقة بها بالضرورة لم تكن تقل عنها روعة وجمالاً.

وكما تميزت المكتبات الفاطمية بالعظمة والبهاء والجمال، فقد تميزت أيضاً بالسعة والضخامة، وضمت العديد من القاعات والحجرات، لكي تستوعب مجموعات الكتب الكبيرة، وفي الوقت نفسه لتستوعب كافة العاملين بها، وفئات المتردين عليها من قراء ونساج ومؤلفين ودارسين، وأساتذة وعلماء وغيرهم ممن لهم اهتمام كبير بالعلم والمعرفة، والاطلاع والبحث.

كذلك خصص الفاطميون في بعض المكتبات حجرات لتقديم خدمات أخرى غير القراءة كاللقاء المحاضرات وعقد المناظرات التي كانت تتم بين العلماء والفقهاء حول مبادئ الدعوة الفاطمية لإقناع الناس بها، ومن ثم اعتناقها، وكذلك لاجتماع أهل العلم والطلاب للمحاضرة في أمور العلم المختلفة. فقد كان ملحقا بمكتبة القصر قاعة للمحاضرات، يطلق عليها (المحول)، وهي أشبه بقاعة المحاضرات العامة في عصرنا الحاضر، وكان يجتمع فيها داعي الدعاة بالحاضرين لإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات^(١).

كما زود الفاطميون مكتباتهم على اختلاف أنواعها بالأثاث والأدوات وغيرها من التجهيزات اللازمة، لتكون مهيأة لاستقبال الرواد من جميع الفئات، ووفروا لها ما يلزمها من احتياجات لحفظ مجموعات الكتب وتسهيل استخدامها وتناولها من قبل المتردين.

وتشمل هذه التجهيزات كل ما يلزم المكتبة من البُسط والفرش والستور، وصناديق الكتب والرفوف المستعملة في حفظها وتخزينها، بالإضافة إلى الأدوات الكتابية على اختلاف أنواعها وأشكالها، كالورق والأقلام والحبر والدَوَى، وغيرها من الأدوات التي تستعمل في الكتابة وعملية النسخ، ووفروا هذه الأدوات في مكتباتهم لاستخدامها من

(١) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٦٨.

قبل القائمين على أعمال النسخ، فضلاً عن استخدامها من قبل الرواد ممن يريد نقل أو نسخ شىء من الكتب.

وقد اهتم الفاطميون بصيانة كتب مكتباتهم والمحافظة عليها؛ لذلك كانت كتبهم مجلدة بجلود جميلة النقوش وغريبة الصنعة^(١)، ولم يهتموا بتجليد كتبهم فقط، وإنما كانت هناك أيضاً متابعة مستمرة لهذه الكتب لإصلاح وترميم ما تشعث منها، وفى الوقت نفسه اهتموا بتزيين كتبهم، حيث كانت الكتب مزينة ومحللة من الداخل والخارج، وكانوا يستعملون الذهب والفضة فى كتابة بعض النصوص، خاصة القرآن الكريم الذى كان يوجد منه فى خزانة القصر ألفان وأربعمائة مصحفاً، محلى بالذهب والفضة وغيرهما^(٢).

ولضمان استمرار المكتبات فى أداء عملها، كان لا بد من توافر هذه المقومات الأساسية المتمثلة فى المبنى والتجهيزات من أثاث وفرش وأدوات كتابية... إلخ، وكان لا بد من توفير الاعتمادات والموارد المالية الكافية للإنفاق على هذه المتطلبات؛ لذلك حرصت الدولة الفاطمية على كفاءة المكتبات وتخصيص الموارد المالية للإنفاق عليها، وأولت اهتماماً خاصاً للإنفاق والصرف على المكتبات العامة الكبيرة التى يقصدها الجميع من عامة الشعب من داخل القطر وخارجه.

وتعد الميزانية بشقيها : التمويل والصرف من الدعائم الأساسية لاستمرار المكتبات فى أداء عملها، وتتأثر الميزانيات عمومًا بالأحوال الاقتصادية فى البلاد، ورغم أهمية هذا العنصر ودوره الفعال بالنسبة لمكتبات مصر الفاطمية إلا أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا من ميزانيات هذه المكتبات إلا ميزانية واحدة، هى ميزانية دار العلم الفاطمية التى تمثل المكتبة العامة للدولة، وما دون ذلك مجرد معلومات متفرقة فى ثنايا الحديث، وبشكل عرضى غير مفصل.

وقد اهتم الفاطميون بتوفير الإيرادات والأموال لتأمين الإنفاق على دور العلم والمكتبات، إيماناً منهم بأهمية الدور الذى تلعبه المكتبات كمؤسسات تعليمية ومنافذ لنشر دعوتهم المذهبية؛ لذلك خصصوا لها الأموال وحبسوا عليها الأوقاف، وغير ذلك من الأموال التى تأتى عن طريق الهبات والمنح والعطايا .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ / ص ٤٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ / ص ٤٠٨ ؛ انظر أيضاً: اتعاظ الحنفا ، ج ٢ / ٢٩٤ .

ويعد الوقف من أهم الموارد المالية التي رصدتها الدولة الفاطمية للإنفاق على مكاتبها، وخاصة المكتبة الرسمية للدولة (دار العلم)، التي خصصت لها اعتمادات مالية معلنة ومكتوبة لضمان استمرارية العمل فيها^(١).

وليس لدينا أرقام دقيقة أو تقريبية للمبالغ التي تم رصدها أو وقفها على المكتبات، حيث لم تزودنا المصادر بنصوص كافية للتعرف على موازنتها، اللهم إلا نص واحد حفظه لنا المقرئ، وهو نص وقفية الحاكم بأمر الله على دار العلم في القاهرة، التي أوقف عليها أماكن في فسطاط مصر ضمنها وثيقة شهد عليها قاضى القضاة مالك بن سعيد^(٢)، وذلك حرصاً من الحاكم على توفير موارد مالية كافية تعين على استمرار دار العلم في تقديم خدماتها للمستفيدين منها.

ويُعد وقف الحاكم بأمر الله لدار العلم أول الموازنات المخصصة للمكتبات في العالم الإسلامي، وتعتبر سبقاً ونموذجاً ومثالاً تحتذيه المكتبات في تحديد وجوه الصرف حتى لا يطفئ جانب على آخر، كما تعد دار العلم أبرز نموذج للمكتبات التي أسست منذ البدء على هذا النظام الوقفى.

وقد رصد الحاكم بأمر الله في وقف دار العلم جزءاً من الإيرادات المالية لتمويل المساجد والجوامع والإنفاق عليها، وأوقف هذه الإيرادات على الجامع الأزهر بالقاهرة والجامع الحاكم براشدة، والجامع بالمقس^(٣)، ومن المنطقى أن تستفيد مكتبات هذه المساجد من أموال هذا الوقف العظيم في الإنفاق عليها.

وتعد إيرادات الأحباس التي أقرها الحاكم بأمر الله سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م) على المساجد والجوامع مورداً مهماً لتمويلها، وتغطية ما تحتاج إليه من النفقات والمصروفات في كل شهر^(٤).

أما المكتبات الخاصة التي انتشرت في هذا العصر، فلم يدخر أصحابها جهداً في الإنفاق عليها، بل رصدوا لها الأموال اللازمة لاحتياجاتها ونفقاتها، وليس أدل على ذلك من أن العاملين من النساخ في مكتبة الوزير يعقوب ابن كلس (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) كانوا يكلفونه كثيراً من الأرزاق^(٥)، وكذلك كان للنساخ الموجودين في مكتبة الطبيب أفرائيم ابن الزفان (ت ٥٩٤هـ/١١٩٨م) ما يقوم بكفائتهم منه^(٦).

(١) (٢: ١) المقرئ، الخطط، ج ١ / ص ٤٥٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٢ / ص ٢٧٣.

(٣) المقرئ، الخطط، ج ٢ / ص ٢٩٥.

(٤) المصدر السابق، ج ٢ / ص ٦.

(٦) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣ / ص ٧٤.

ولم تكن الأوقاف هى المورد المالى الوحيد - وإن كانت المورد الأساسى - للصرف على المكتبات، وإنما شكلت الموارد الأخرى كالهبات والمنح والعطايا والأرزاق والخُلع مصدرًا من مصادر التمويل والإنفاق على هذه المكتبات، سواء كان ذلك من جانب الدولة أو الأفراد.

وتعتبر القوى البشرية أو الهيئة العاملة بالمكتبات هى العنصر الثالث من العناصر التى تقوم عليها المكتبات، وهى لا تقل فى الأهمية عن العنصرين السابقين : المبنى والميزانية، لأنه بدون هيئة من العاملين لا يمكن تسيير العمل فى المكتبات. ولكى يضمن الفاطميون تأدية المكتبات لوظائفها وخدماتها، كان لا بد من توفير إدارة ناجحة لإدارتها وتنظيمها، وتعيين كوادر فنية متخصصة للعمل فيها والقيام بمهامها، وذلك إيمانًا منهم بأن الإدارة الناجحة والمتخصصة سوف تساعد على نجاح هذه المكتبات فى تأدية دورها التى أقيمت من أجله، وبالتالي نجاح الدعوة المذهبية فى تحقيق الانتشار بين طبقات المجتمع المصرى .

وقد كان للخلفاء الفاطميين اهتمام عظيم بإدارة مكتباتهم، واشترك معهم فى ذلك بعض الوزراء والعلماء، وكان لهم الحق فى الإشراف العام على المكتبات، سواء العامة منها والخاصة، الكبيرة والصغيرة، الملحقة والمستقلة.

وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته لدرجة أن الخليفة الفاطمى العزيز بالله كان يشرف بنفسه على خزانة كتبه ويتعهد بها بعنايته، وذلك قبل أن يعين لها مشرفًا، وكثيرًا ما كان يزورها للاطلاع ولتسجيل ملاحظاته على الكتب وتقرير ما يصلح منها لوضعه على الرفوف، واستبعاد ما لا يصلح.

وكان لإشراف الخلفاء الفاطميين بأنفسهم على مكتباتهم أكبر الأثر فى نجاح هذه المكتبات، ومساعدتها فى القيام بمهامها الوظيفية، وأداء رسالتها فى نشر المذهب الإسماعيلى .

وقد تولى إدارة المكتبات الفاطمية مجموعة من ألع الكوادر الفنية المتخصصة، واكتسبت هذه المكتبات شهرتها بفضل العاملين بها من كبار العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء الذين حملوا على عاتقهم مهمة القيام بوظائفها، وكانوا فى حقيقة الأمر رجال دين وأدب وعلم وفضل، تميزوا بمركز أدبى واجتماعى رفيع فى الدولة.

فعلى سبيل المثال كان المشرف العام على سير الدعوة الفاطمية والقائم بأعمالها فى المكتبات رجل دين يسمى داعى الدعوة، تم إلحاقه بهذه الوظيفة لما يتمتع به من

صفات، أهمها علمه بالمذهب الإسماعيلي، ومعرفته ببواطن العقيدة المذهبية، أما ما يتعلق بالمكتبات من أعمال إدارية وفنية فكانت من اختصاص أمناء المكتبات الذين كانوا على درجة كبيرة من العلم والثقافة تؤهلهم لشغل هذه الوظيفة.

ووظيفة المشرف أو الناظر من الوظائف الإدارية العليا التي تتولى مهمة الإشراف والنظر في أمور المكتبات وما تحتاج إليه، ولما كان الهدف الأساسي من الكتب والمكتبات في مصر الفاطمية هو نشر المذهب الإسماعيلي، وإذاعة تعاليمه بين الناس، فقد كان طبيعياً أن تخضع المكتبات الفاطمية لرقابة صارمة ومتشدة من جانب الخلفاء والوزراء، وكان عليهم تعيين مشرفين أو ناظر على هذه المكتبات للإشراف والنظر في أمورها، ومتابعة الأعمال والمهام، والرقابة على عملية وضع الكتب وتنظيمها، خاصة الكتب المتعلقة بالدعوة المذهبية، وكان المشرف أو الناظر يتولى السلطة كلها في المكتبات الفاطمية، وهو أشبه بوظيفة المدير العام للمكتبة في عصرنا الحاضر.

وقد اختص داعي الدعوة - الذي كان يسند إليه مع الدعوة في كثير من الأحيان أمر القضاء أيضاً - بوظيفة الإشراف العام على المكتبات بمختلف أنواعها ومستوياتها، والنظر في أمور الدراسة والتعليم بها، ومراقبة الحلقات الدراسية المذهبية لارتباطها المباشر بعمله الرئيس في الدولة، وهو نشر الدعوة المذهبية والدعاية لها.

لهذا كان لا بد من توافر عدة شروط فيمن يكلف بهذا المنصب المهم والخطير في الدولة، أهمها : التعمق في المذهب الإسماعيلي ومعرفة أسرار العقيدة الفاطمية، والثقافة الواسعة الشاملة، والذكاء والفطنة السياسية والدينية، والتمكن من اللغة وأساليب البلاغة والخطابة، والقدرة على الإقناع والتأثير في العقول. فتوافر هذه المقومات يساعد على التواصل بين الناس بمختلف طبقاتهم، ومن ثم يساعد على نجاح الدعوة في الوصول إلى العقول والقلوب.

ولأهمية هذا المنصب كان داعي الدعوة يتم اختياره وتعيينه من قبل الخلفاء الفاطميين، إلى أن تولى الوزارة أمير الجيوش بدر الجمالي الذي استبد بشئون البلاد وقبض على مقاليد الحكم بها سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٤م)، فأصبح ابتداء من هذا التاريخ يتم تعيين المناصب العليا في الدولة، ومنها قاضي القضاة وداعي الدعوة، على يد الوزراء^(١).

(١) المقرئزي، الخطط، ج ١ / ص ٤٠٣ .

وقد اختص بهذه الوظيفة على سبيل المثال، داعى الدعاة الحسين بن النعمان بن حيون المغربى (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وهو من أمهر فقهاء المذهب الشيعى، وقد فوضه الحاكم بأمر الله فى الإشراف على المساجد والجوامع - بما فى ذلك المكتبات - والقوامه على "الخزنة والخطباء والمؤذنين فيها، وعلى سائر المتصرفين فى أعمالها ومصالحها"^(١)، وداعى الدعاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م)، وهو أحد مؤسسى المذهب الإسماعيلى المخلصين، وسليل أسرة النعمان التى اشتهرت بوفائها وإخلاصها للعقيدة الشيعية، وكان عبد العزيز عالماً من علماء الفقه على مذهب الإمامية، كحال آل بيت النعمان، وقد تولى وظيفة القضاء مع الدعوة، وكلفه الحاكم بأمر الله بالنظر فى دار العلم، والإشراف عليها مدة وظيفته داعياً للمذهب، فكان بذلك أول المشرفين على دار العلم، كما فوضه الحاكم بأمر الله بالنظر فى المساجد - بما فى ذلك المكتبات - وتفقد أوقافها، وجمع الريع وصرفه فى وجوهه، ففعل ما أسند إليه من أعمال ومهام وبالغ فيه، وأفرد لذلك شاهدين يضبطانه^(٢).

ولأهمية الإشراف على دار العلم لدى الخلفاء الفاطميين، نجد أن الحاكم بأمر الله كان حريصاً كل الحرص على أن يكون أول المشرفين عليها عالماً فقيهاً من علماء الدعوة الفاطمية وأميناً عليها، للإشراف باهتمام وجدية على دروس الدعوة ومجالسها، مما يؤكد على الصفة الدعائية لدار العلم هذه، وأنها أنشئت منذ البداية لتكون معقل الدعوة المذهبية والدعاية لها.

ووظيفة الخازن أو متولى الكتب هى الوظيفة الأولى والأساسية فى جميع أنواع المكتبات، والمسئولة إدارياً وفنياً عن كل ما يتعلق بالعمل الداخلى فى المكتبة، وهو ما يطلق عليه حالياً أمين المكتبة، وكان الخزنة فى المكتبات الفاطمية من رجال الأدب أصحاب المكانة الرفيعة، الذين تمتعوا بسمات وأخلاق حميدة، وخبرة واسعة فى المجال، وكانوا من العلماء المشهورين فى الدولة، ولم يكن يشترط فيهم أن يكونوا من رجال الدين، ومع ذلك فقد جمعوا إلى معارفهم الأدبية بعض المعارف الدينية. ولم تقتصر معارفهم على اللغة والنحو فحسب، بل أضافوا إليها الشعر والتاريخ والفلسفة والمنطق، حتى تحصل لهم ثقافة شاملة يستحقون معها أن يطلق عليهم اسم أدباء، وأن

(١) الكندى، الولاية والقضاة، ٥٩٧، انظر أيضاً: القلقشندي، صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٧.

(٢) ابن حجر العسقلانى، رفع الإصر، ج ١. القسم الثانى، ص ص ٣٥٩-٣٦٣، انظر أيضاً: الكندى، المصدر السابق، ص ص ٥٩٩-٦٠٣.

يتولوا أهم وظيفة فى مكتبات بها كل صنوف المعرفة الإنسانية.

وتتمثل طبيعة عمل الخازن ومهامه - فى ذلك الحين - فى وضع الكتب على الرفوف وتنظيمها بحيث يسهل الوصول إليها من جانب القراء والمترددین، وتوفير الأدوات اللازمة من أقلام وورق وحبر وإتاحتها للمستفيدين، وكذلك تنظيم عملية إعارة الكتب والمخطوطات التى يطلبها الخلفاء^(١)، والتى يحتاجها العلماء الذين يذهبون إلى المكتبة لإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات.

ولما كان الخازن موسوعة أدبية وثقافية شاملة، وعلى دراية بمختلف العلوم، وبالفقه الشيعى بصفة خاصة، فقد أهله ذلك للقيام بوظيفة أخرى - بجانب عمله المكتبى - هى التدريس والمحاضرة داخل المكتبة، فكان يتولى خزانة الكتب والتدريس معاً.

ويبدو أن جمّع الخازن أو أمين المكتبة بين عمله المكتبى وبين التدريس - سواء فى المكتبات العامة أو مكتبات المساجد - كان يعطيه بعداً علمياً وثقافياً، يجعله على معرفة دائمة بميول القراء واتجاهاتهم؛ مما يعد سبباً للفاطميين. وهذا ما تنادى به الإدارة الحديثة للمكتبات، حيث يشترط أن يكون أمين المكتبة على قدر كبير من الثقافة وتنوع المعارف بجانب علوم التخصص، حتى يكون أكثر تفهماً وإدراكاً لاحتياجات المستفيدين من المكتبة على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم العلمية؛ مما يساعد على نجاح المكتبة فى تحقيق أهدافها وتلبية احتياجات المستفيدين منها.

وقد وردت وظيفة الخازن بشكل صريح وواضح فى وقفية دار العلم بالقاهرة^(٢)، كما جاء ذكرها فى وصف المقرئى لخزانة الكتب بالقصر عندما أمر الخليفة "خزان دفاتره"^(٣) بإخراج وإحضار بعض الكتب من الخزانة للاطلاع عليها والنظر فيها.

ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة فى المكتبات الفاطمية - على سبيل المثال لا الحصر - محمد بن إسحاق الشافى (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م)، وكان أديباً فاضلاً، وعالمًا جليلاً من أدباء مصر وعلمائها ومؤرخيها المشهورين فى العصر الفاطمى، اختص بخدمة العزيز بالله فولاه خزانة كتبه، واتخذ من جلسائه وندمائهم، وجعله يقرأ له الكتب ويحاوره فيها، وله عدة تصانيف أسهمت فى رقى الحياة الفكرية فى ذلك الوقت، منها :

(١) المقرئى، الخطط، ج ١ / ص ٤٠٨ .

(٢) المقرئى، الخطط، ج ١ / ص ٤٥٩ .

(٣) المصدر السابق، ج ١ / ص ٤٠٨ .

